الاب شيخو والتاريخ

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في آخر جزء من مشرق سنة ١٩٢٧، اختصر مديرنا المأسوف عليه حركة المجلة العلمية، في الخمسة والعشرين سنة الاولى من حياتها. وعلى رغم من استحكام الداء الذي اودى بهِ قبل الاوان، اراد ذاك العامل الكبير أن يلقي نظرة على عمل خصَّص في سنيله افضل سني حياته المخصبة. فكان مقاله مختصراً، ولكن واضحاً، كعمل ما خطَّهُ ذاك القلم. فذكر قبل كل شيء جميع من عاونوه بطريقة دائبة او منقطعة. ولم ينسَ الَّا ذكر نصيبه. وقد كان هذا النصيب عظيماً لا حاجة الى تعريف القرَّاء به. على اننا رأينا ان نذكر، في الاسطر التالية، شيئاً من ذاك النصيب فيما يخصّ الاب شيخو بصفة كونه مؤرخاً.

١

قبل ان يبني المهندس القصر الرفيع، يبدأ بجمع الموادّ المعدَّة لبنائه. فيختارها متينة، صالحة، ناقمة لاتمام العمل. وهكذا فان التاريخ، الذي هو اعادة بناء الماضي، يلزمه عمل استعدادي، عمل شاقّ، عمل وضيع، ولكنه ليس بالاقلّ نفعاً. هذا العمل ! يقوم باكتشاف الوثائق ونشرها وهي الموادّ التي يلزم المؤرّخ استعمالها في عمله التاريخي. ونحن نرى ان الاب شيخو خدم التاريخ في هاتين الطريقتين، فعمل في سبيل تقدّمه وازدهاره.

وفعلًا فان قليلًا من المستشرقين يعادلون فقيدنا في اكتشاف المخطوطات، وتقديرها حقّ قدرها، ونشرها بتلك الصراحة والدقة، التي يزيدها صعوبة

الاب شيخو على فراش المرض (بريشة الاب بر جمو)

خلوّ المكاتب الّا من نسخة واحدة من المخطوطة ، مع المشقّة في تفهّم قراءتها لما يكون فيها من التصحيف والتحريف . ولكنه في جدّه وراء الوثائق النادرة والغير المنشورة ، لم يكن ليبالي بشيء ، ولم يكن شيء ليثبط عزيمته : لا الاسفار الشاقّة الى المناطق السحيقة والموحشة بعض الاحيان ، ولا الجلسات الطويلة تُخصّص كلها لنقل المخطوطات . ففي هذا العمل المطّرد ، تفانت ، ببطء وبدون ان يشعر ، بنيةُ هذا العالم المتينة التي كان من حقّها ان تخدمه مائة سنة . وكان ، اذا ابتعد بضع ساعات عن محلّه المعتاد اي المكتبة الشرقيّة ، يذهب الى مكاتب المدينة ، فيبحث فيها ويعود ، مثقل اليدين بالكتب الجديدة . اما اذا خرج من بيروت ليلتهي قليلًا من الشغل المعتاد ، فكان ينصرف بكليته الى الملهاة الوحيدة التي عرفها والعزيزة لديه ، الا وهي الجدّ وراء المخطوطات . وكم كان هذا الجدّ وافر الانتاج ! ان زوّارنا المعتادين تحققوا ذلك مرّات عديدة . اما الآخرون فيتحققونه ، اذا ما القوا نظرة على « بيان مخطوطات المكتبة الشرقية » الذي ظهر في نشرة كلية القديس يوسف (Mélanges de l'Université S^t Joseph)

ولم يكن فقيدنا ليستأثر بهذه الكنوز العلميّة ، وهو لم يُعرف قط بواحدة من تلك الخلال الغريبة التي تنفّر الناس احياناً من بعض غواة الآثار وجمّاعها . ولكنه بذلها لإفادة الجمهور ، فرتّبها بطريقة عقليّة ، وكان يظهرها ، دون ملل ، لكل زائر ، ويسهّل الاطّلاع عليها والاستفادة منها لجميع معتادي المكتبة الشرقية ، ويجيب على كل الاسئلة والاستفهامات المتراكمة عليه من الغرب والشرق . ويعرف جميع من عاشره ، تلك الصفات السامية التي كانت تدفعه للتضحية والترفّع التام عن تطلّب الشهرة الشخصيّة . ولم يكن وقته يسمح له بفرصة الّا اغتنمها لنشر مخطوطاته ، وجعلها بين ايدي الدارسين فطبعها مع مقدّمات قيّمة ، وشروح وافية ، كثيرًا ما كانت تثير او تحلّ بعض المسائل التاريخيّة

ولما كان الاب شيخو من فطرته ميّالًا لوصف الكتب ، نال في هذه الاعمال حظًّا وافرًا . فظهرت غيرته على هذا العلم في كتابه « المخطوطات العربيّة

لكتبة النصرانيّة » حيث ذكر على حروف الابجدية ، مؤلفات لا تزال خطية لاكثر من ٩٠٠ كاتب قديم وحديث . ونحن مدينون له ايضاً بنشر « مجموعة اربع رسائل لقدماء فلاسفة اليونان ، ولابن العبري » وتلك خدمة مهمّة ادّاهـا لتاريخ تعريب المؤلفات الفلسفيّة ، وللدور الذي كان للمسيحيّين في ذلـك . وقد يكون اقدم من اهتمّ من كتبة النصارى ، بالتأليف الديني في اللغة العربيّة ، الاسقف الملكي المشهور ، تيودورس ابو قُرّه . فنشر له الاب شيخو رسالة في « وجود الخالق والدين القويم . » واضاف اليها رسائل عدّة في الجدل واللاهوت المسيحي مع بعض امثلة عربيّة غير منشورة من الخطابة الدينية النصرانيـة . وقيمةُ هذه النصوص أنها تفيدنا في اتباعنا الحركة العقلية في الجماعات النصرانية التي كانت تعيش تحت سيطرة المسلمين . كما اننا نتحقق ، في مواعظ خطبـاء النصارى ، تأثير خطب « الجمعة » الاسلامية الذي لم يكن دائماً بالحسن

ولما ابتدأ الاب شيخو في التعليم ، لخمسين سنـة خلت ، لم يكن يتصوّر المعلمون اهمية المادّة التاريخيّة ومنفعتها في تفهّم مؤلفي العرب . فكانوا يدرّسون النصوص القديمة دون ان يضعوها في زمانها ومكانها التاريخيّين . ولهذا نرى ان شرح المجاني ، وهو اشبه بدائرة معارف محتوية على ١٥٣٠ صفحة بخطّ رفيع ، كان اوّل من نبّه الافكار الى حركة تجديدية ، ويرهن عن عقم تلك الطريقـة التقليدية . وقد اظهر بكل وضوح ، معاوننا الاديب فؤاد افرام البستاني ، في العدد الفائت من المشرق ، هذه الوجهة من اعمال الاب شيخو في تاريخ الادب العربي

وفضلاً عن ذلك فان الدواوين الشعرية العديدة التي نشرها الاب شيخو ، كانت تظهر مقدّمةً ببحث انتقادي في حياة الشاعر وشخصيته . وان الكثيرين من هؤلاء الشعراء مدينون له بشهرتهم لانهُ اخرجهم من ظلمة النسيـان الى عالم النور ، لاسيما شواعر الجاهلية البالغ عددهنّ الستين اللواتي نشر حياتهنّ في « رياض الادب في مراثي الشواعر العرب » ، وفي « ديوان الخرنق اخت طرفة » وفي « انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء » . وينبغي القول ان هذه الطبعة المزيّنة بعدد عديد من الانتقادات والملاحظات ، التي كانت الاولى من نوعها في

الشرق ، اصبحت أمّاً لكثير من دروس مستشرقي ايطالية والنمسة فيما يتعلق بالحنساء كبرى شواعر الرثاء.

ولو لم يكن لفقيدنا الّا نشره « تاريخ بيروت لصالح بن يحيى » لكفى وحده محيي تاريخ سورية حتى يولوا الناشر خالص شكرهم لطبعه ذاك الاثر المهمّ ، حسب النسخة الوحيدة الموجودة في باريس ، ولما اردفه من التعليقات النقديّة والشروح. فكان عمله خدمة جليلة لتاريخ بيروت ولبنان خاصّة ، في القرون الوسطى ، وهو موضوع لم ينتبه له كتبة العرب الاقدمون . ولهذا كان هذا التاريخ الوثيقة الوحيدة لمعرفة الحالة الاجتماعية اللبنانية في ذاك العصر.

٢

على ان الاب شيخو لم يكتفِ ان يقدّم للمؤرخين موادّ قيّمة ، بل اراد ايضاً ان يؤلف في التاريخ . وكان يفضّل ، في هذا الموضوع الفسيح ، كل ما يختصّ بماضي الشرق ، وما يختصّ ، في هذا الماضي ، بتاريخ الآداب العربية ، والتاريخ الديني . اما اعماله في تاريخ الآداب العربية ، فاننا نحيل القرّاء ايضاً الى مطالعتها في درس معاوننا الاديب فؤاد افرام البستاني ، وفي المقالات النقدية العديدة التي ظهرت في « المشرق » ، وفي الدروس الكتبية المنشورة للقديد في المجلة المذكورة ، وفي نشرة كلية القديس يوسف (Mélanges)

اما فيما يتعلق بالتاريخ العامّ ، فاننا ، تفادياً من سرد جدول طويل وجاف ، نكتفي بالاشارة الى اهمّ المواضيع التي عالجها بالتدريج ، فمنها : تراجم مشاهير الشرق ، وتاريخ الطوائف الشرقية وائمتهم ، وبطاركتهم ، واساقفتهم ، وفلاسفتهم وعلمائهم ، مع دروس ليتورجياتهم ، واعيادهم ، وكلنداراهم ، وحياة قدّيسيهم — خصوصاً اللبنانيين — ومنها تاريخ الابرشيات الشرقية ، وتاريخ القصادة الرسولية في سوريا ، وتاريخ الزيارات والمزارات المهمّة ، الى غير ذلك ممّا لو جمع وحده لالف عدّة مجلدات ضخمة

وبعد ان نشر تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ، شاء ان يتعرّض للموضوع نفسه . لان مؤلف صالح لم يكن بالحقيقة تاريخاً خاصّاً بمدينة بيروت ، بل كان

تاريخاً عاماً للبنان من القرن الحادي عشر الى القرن السادس عشر. وهو يتكلم عن بيروت بمناسبة صلاتها مع لبنان. فوضع الاب شيخو تاريخه من نشأة بيروت الى ايامنا هذه، مستنيداً من آخر الاكتشافات الاثرية، واحدث دروس المستشرقين الذين جدّدوا هذه المادة. ثم نشر عمله بعد ان زيّنه بالتصاوير القديمة فكان، دون شك، اوسع بحث واوثقه في ماضي عاصمة لبنان

* * *

ذكرنا، بين الطبعات الاولى التي قام بها الاب شيخو، شعراء العرب الجاهليين. ولا لزوم للقول ان الطابع لا يشارك الدكتور طه حسين في شكه فيما يختص بصحة الدواوين القديمة. وقد كان لهذا الكتاب الكبير، المؤلف من ٩٣٠ صفحة مئمنة، ان يسدّد وجهة الابحاث التاريخية ويجعل، من نصرانية بلاد العرب قبل الاسلام، نظرية عزيزة على المؤلف حتى انه خصّص لها افضل سنوات شغله الحبيبة في النصف الاخير من حياته المخصبة. فنشر، بعد «شعراء النصرانية» الجاهليين، بحثه في «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» وهو كتاب ذو ٥٠٠ صفحة يتكوّن منه مقدّمة «لشعراء النصرانية». وقد درس فيه المؤلف، بكل تفصيل، تاريخ النصرانية في بلاد العرب استناداً الى اقدم المصادر، وأظهر انتشارها في كل الجزيرة قبل الاسلام

وان هذه المقدّمة تظهر الوحيدة، بين جميع الكتب العربية، في تعمقها وكثرة البحث والتفتيش التي تمّ عليه، لانه لم يكف لتأليفها، بمعرفة تامة بالآداب الغربية فقط، بل لزم تنقّب جلود كالاب شيخو، عارف باشهر اللغات العلمية في الشرق والغرب، ومطّلع على احدث الدروس الجدلية لمستشرقي اوروبة

فبدأ المؤلف بجمع كل الشهادات المتفرّقة في عدد عديد من التآليف اليونانية، واللاتينية، والسريانية، والعربية، التي تشير او تلمح الى نصرانية العرب. وكثير من هذه الشهادات استخرجت من نصوص يصعب الاطلاع عليها، او نقلت من مخطوطات جمعها المؤلف، او درسها، اثناء زياراته العلمية

لمكاتب اوروبة والشرق . ولم تفته الكتابات القديمة ، بل استعمل كل ذلك مع ما تقدَّم فاظهر فضل النصارى على جزيرة العرب الجاهلية ، وكل ما هي مدينة به اليوم ، وكيف ان آدابها اغتنت بالكثير من المفردات الدينية ، واسماء الاعلام ، والامثال ، والاشارات الى اخبار العهد العتيق والجديد ، مما يبلغ المئات من الحكم والامثال التي دخلت بعد ذلك في مجموعات الحديث الاسلامي ، الى غير ذلك من الاستعارات المسيحية التي تبدو مأخوذة عن الكتب المقدَّسة

بقي صعوبة مهمة : وهي ان القصائد الجاهلية لا تتضمَّن مقاطع تظهر بصراحة نصرانية اصحابها . وقد اجاب الاب شيخو على هذه المسألة ، في آخر فصل من مؤلفه ، بان ذكَر ان هؤلاء الشعراء من قبائل مسيحيَّة . والحال اننا ، بما نعرف من التضامن المتين الذي كان يجمع بين افراد القبيلة جميعهم ، نتحقق ان الشعراء ، وهم رافعو لواء قومهم ، لم يكونوا يفترقون عنهم في امر مهم كالديانة . وفضلاً عن ذلك فان خلوّ اشعارهم من آثار الوثنية ، ومظاهر اعتقادهم بالتوحيد ، وبالحياة المستقبلة ، وتعوّدهم الكثير من الافكار والمؤسَّسات والاعياد المسيحية ، والتعبير اللطيف الذي يستعملونه لذكرها والذي يُلزم كونهم في محيط نصراني او متنصّر ، كل هذا يهيّئ للمؤلف برهاناً جديداً على صحَّة نظريته

وقد كان الاب شيخو يعتقد كل الاعتقاد ان تاريخ الآداب العربية اجحف بحقّ المسيحيين . على ان نظريته في نصرانية بلاد العرب وشعراء الجاهلية كانت تختلف كثيراً عن الآراء المقرَّرة اذ ذاك ؛ وفيها من الجرأة ما كان لا بدّ له ان يثير المعارضات . وقد يكون اعتقاده الشخصي جرّه بعض الاحيان الى الاسراع في تعميم نظريته ، وابراز بعض البراهين التي لا تقوى على النقد الدقيق ؛ وهو مصير كل النظريات الجديدة التي يطرحها رجال الاقدام . ولم يكن الاب شيخو الّا من هؤلاء . كما لاحظت مجلة « المسرَّة » (١ اذ قالت : « كان ، مدة اربعين سنة ، رجل الاقدام لفتح الطرق الجديدة وتمهيد السبل وتذليل المصاعب في وجه من شاء اغتراف العلوم العربية . » ولكن لم يقم احد من معارضي الاب

١) المسرَّة – عدد كانون الثاني ١٩٢٨ ؛ ص: ٦٦

شيخو فينكر عليه تعمقه في العلوم العديدة . بل ان الجميع يثنون ويشكرون له ابراز الوثائق العديدة التي كانت مجهولة او غير معتبرة قبل ان يستعملها ، وقد قالت المجلة نفسها ايضاً : « الاب لويس شيخو هو سبب النهضة الكبيرة التي نراها اليوم بين الادباء لجمع آثار السلف ، والانصباب على العلوم التاريخية الشرقية ادبية كانت ام مدنية »

* * *

خصّص فقيدنا لبحثه في النصرانية وشعرائها في الجاهلية مجلدين كبيرين يحويان اكثر من ١٤٠٠ صفحة . وكانت غاية هذا العامل الجلود ان يعاود درس الموضوع ويتابعه في العصور الاسلامية . وقد بدأ ذلك في « شعراء النصرانية بعد الاسلام » فذكر عدداً كبيراً من الشعراء الذين تظهر نصرانيتهم اقل عرضة للشك من نصرانية سلفائهم الجاهليين . انما لم ينل جميعهم حظّ الاخطل التغلبي في نبوغه ولمانته لدين اجداده . وكان المؤلف يُلحق بترجماتهم الكثير من اشعارهم مأخوذة من مصادر اكثرها لم يُنشر بعد . على انهُ لم يظهر من هذا العمل الا ثلاثة كراريس تحتوي على ٤٠٠ صفحة . وكان للكرّاس الرابع ، الذي كان قد اوشك ان ينجز ، ان يتضمّن ما نُشر في مشرق كانون الاول ١٩١٧ ، عن ابن افرنجية الشاعر الحلبي في اواخر القرن الثامن عشر . ولكن الموت قطع سلسلة هذه الابحاث النفيسة في نصيب المسيحيين من تطوّر الآداب والمدنية العربية ، التي بدأها المؤلف منذ اربعين سنة فطبع اولها عام ١٨٩٠ . وهي اذا اخذت من المؤلف افضل حصة من حياته العلمية ، فذلك لانه كان يرى فيها الامرين العظيمين اللذين خصّص حياته لخدمتها ، الا وهما : الديانة المسيحية والآداب العربية

ومن اعمال فقيدنا المهمّة انه سدَّ تلك الثلمة الواهية في معلوماتنا عن آداب القرن التاسع عشر ، فنشر في ذلك مقالات واسعة ظهرت اولاً في المشرق ، ثم طُبعت وحدها في ٣٥٠ صفحة بعنوان « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » ولم تلبث ان طُبعت طبعةً ثانية . فتلقّاها علماء الشرق والغرب بكل

سرور ، وأبان المستشرق الكبير اغناطيوس غولدزيهر اهميتها (١ . وكانت غاية الاب شيخو ، في ذاك الكتاب ، ان يتتبع حركة النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، فذكر جميع الاسباب التي انتجت ذاك التطوُّر رغم حكم عبد الحميد المضيق . ثم اعاد العمل نفسه في « الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين » وقد نشر ، في آخر عدد من المشرق سنة ١٩٢٧ ، لائحة المجدية باسماء ادباء المسلمين . وهكذا فان المجاهد الكبير قام ، حتى آخر دقيقة من حياته ، بالوعد الذي ذكره في اول صفحة من المجلة قائلاً انه سوف يفضّل دائماً « كل الابحاث المتعلقة بالشرق والطوائف الشرقية . . . لئلا يُقال ان الغريب ادرى بما في البيت من أهله . »

* * *

ونحن ، اذ نختم هذه اللمحة العامّة على اعمال الاب شيخو التاريخية ، نرى من حقّنا ان نعدّه بين اخصب واجدر مؤرخي الشرق العربي . وهذا ما رأته الحكومة اللبنانية في الاسباب التي حملتها على تكريم مديرنا العزيز بعد وفاته ، فقالت :

« منحت مدالية الاستحقاق اللبناني الفضية ذات السعف للاب شيخو اكراماً له ، بعد الوفاة للاسباب ، الآتية :

« بقي نحو خمسين سنة يخدم اللغة العربية بنشر كنوزها المدفونة ، وتأليف الكتب العديدة فيها . وخدم لبنان خاصّةً وبلاد الشرق عامّةً بما نشره من التآليف عن تاريخها وآثارها وعلومها حتى بلغت مطبوعاته مئة وعشرين مجلّداً ، فاستحقّ شكر لبنان . »

١) راجع Deutsche Literaturzeitung, 1 Mai 1909; 25 Février 1911